

ديوان قراضة العسجد في الكيمياء القديمة
للشَّيخ الأكبر محيي الدِّين ابن عربي
الهوري غزالي
باريس

سنقوم في هذه الدراسة بتقديم ديوان قمنّا بتحقيقه للشَّيخ الأكبر محيي الدين بن عربي والذي يحمل عنوان قراضة العسجد في معرفة الحجر المفرد، وسنعالج من خلال هذه الدراسة موضوعين أساسيين: أولهما التَّحقيق من نسبة ديوان قراضة العسجد لمحيي الدين بن عربي، وذلك نظراً لافتقادنا المعلومات التي من شأنها إثبات نسبة الديوان إلى صاحبه، وثانيهما؛ البحث في معرض ذلك عن ملامح موضوع الكيمياء الرُّوحية التي أثارها ابن عربي في كتابه الفتوحات المكيّة في فصل بعنوان: كيمياء السَّعادة. والهدف من هذا البحث هو إيجاد نقاط تقاطع بين ديوان قراضة العسجد ومؤلفات ابن عربي النَّثرية خصوصاً.

ويندرج اهتمامنا بهذا الديوان ضمن رؤية - نأمل أن تكون كاملة - نعمل من خلالها على تأسيس غرض شعريّ جديد لم ينتبه إليه -للأسف- نقادنا القدامى والمحدثون. ولقد لفتنا قرأنا في مقال نُشر بمجلة نزوى مطلع 2018 إلى هذه المسألة، وناقشنا موضوع المنظومات الشعرية في الكيمياء¹ من خلال قصائد الشاعر الأندلسي ابن أرفع رأس المجموعة في ديوانه شذور الذهب²، وقلنا إن أغلب القصائد المنظومة في الكيمياء لا تمت بصلة بموضوع النِّظم التَّعليمي لأنها قصائد تستخدم اللُّغة التَّرميزية والتَّشفيقية، بينما واجب النِّظم التَّعليمي هو التَّوضيح والإفهام لا التَّلبس والإبهام. وسَمَّينا غرض شعر الكيمياء بغرض السَّلَامات، والصناعات أيضاً. وكان ينبغي بنا أن نطلق عليه مصطلح الصَّنَعِيَّات نسبةً إلى الصَّنعة وليس إلى الصَّناعة.

عرف العرب أوّل القصائد في مجال الكيمياء عن طريق الشَّاعر الأموي خالد بن يزيد (ت 90هـ/709م) الذي نظم ديوان فردوس الحكمة ويسمى بديوان النُّجوم أيضاً في أكثر من 2500 بيت شعري. وتبعه الشاعر الطُّغراني (ت 513هـ/1120م) وزير الموصل وصاحب لامية العجم في ديوان بعنوان المقاطيع في الحكمة، ثم ابن أرفع رأس (ت 593هـ/1197م) الذي قمنّا بإصدار ديوانه "شذور الذهب" محققاً بدار الكتب العلمية نهاية أوت 2018.

1- أمّا الشَّيخ محيي الدِّين ابن عربي (ت 638هـ/1240م)، فقد نظم قصائد في الكيمياء، وهو رابع شاعر -من حيث التَّرتيب الزَّمني التَّاريخي- ينظم في هذا المجال. وتنقسم الأعمال الشَّعرية لديه - بحسب ما توصلنا إليه حتّى الآن- إلى قسمين: قسمٌ يمثله ديوان شعريّ كامل وهو بعنوان قراضة العسجد، وقسمٌ آخر تمثله قصيدة واحدة مستقلة عن الديوان وهي تسمّى بالهمزية نسبةً إلى حرف رويّها. فأما ديوان قراضة العسجد فهو متكوّن من 67 قصيدة، مرتبٌ على حروف المعجم، ومحتوٍ على 572 بيتاً، أغلب عروضه على بحر السَّريع. بينما تحتوي القصيدة الهمزية وهي التي تمثّل القسم الثَّاني من مجموع ما حقّقناه على 42 بيتاً منظوماً على وزن الكامل، ليكون مجموع أبيات ابن عربي في هذين المثنّين 614 بيتاً شعرياً.

¹ بين الحكمة و الصنعة و السَّلَامات : ابن أرفع رأس الجياني الأندلسي في ديوانه الشذور، الهواري غزالي؛ مجلة نزوى، ع 93، 2018، ص 29-38.

² انظر ابن أرفع رأس الجياني الأندلسي، ديوان شذور الذهب، حقّقه وقَدّمه وعلّق عليه الهواري غزالي، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 2018.

ولقد وضعت يدي على هذا المخطوط "قراضة العسجد" بالصُدفة عندما كنت بتونس العاصمة لغرض إلقاء محاضرات بقسم اللغة العربيّة وآدابها بجامعة التّاسع أفريل³. ولقد حالني الحظُّ أن تكون دار الكتب الوطنيّة على مرمى حجر من موقع الجامعة، فكان تردّي عليها من قبيل تعميق اطّلاعي على مخطوطات أدب الكيمياء، وعلى مخطوط ديوان شذور الذهب لصاحبه ابن أرفع رأس الجيّاني الذي كنت بصدد تحقيقه حينها. ولقد فوجئت بقراضة العسجد مضمّناً في الجزء الأخير منه، فكلا الديوانين مجموعان في مخطوط واحد. ويوجد هذا المخطوط مصنّفاً تحت الرقم التسلسلي 96604 ضمن علم الكيمياء. واقتنيت هذا الديوان نسخاً إلكترونيّاً بتاريخ فيفري 2018.

ولقد وردت في العنوان مفردة قراضة، وهي من القرض، والقرضُ في اللسان القطعُ. وقرضه يقرضه، بالكسر، قرضاً وقرضه: قطعه. وكذلك قراضات الثوب التي يقطعها الخياطُ. والقراضة: ما سقط بالقرض، ومنه قراضة الذهب. ولعلّ اختيار مفردة القراضة لا يحيل فقط إلى معنى القطع الصغيرة وإنما أيضاً إلى الشعر، فالقريضُ في اللسان كالفصيد، فيقال: قرضتُ الشعرَ أقرضه إذا قلته. أمّا التقريضُ فهو صناعته. فكأنما اجتمع في الجذر اللغوي ما مفاده الشذور والنظم والصناعة؛ وهي مفردات لا تخدم معنى صناعة الذهب بقدر ما تخدم معنى صناعة الشعر أيضاً. أمّا بخصوص مفردة العسجد فهي في بعض اللغات اسم للياقوت مثلها مثل مفردة الجواهر وهو كل حجر يستخرج منه شيء ينفع به، ومثل مفردة الكبريت. وفي اللسان أنّ العسجد الذهب؛ وقيل: هو اسم جامع للجواهر كله من الدرّ والياقوت. ولقد اشتهر علماء الكيمياء بهذه المصطلحات التي تفيد معنى الذهب مثل مصطلح الإبريز، الثّبر، العسجد، العقيان، والنضار. أمّا اجتماع مصطلحي القراضة بالعسجد بعنوان الديوان اجتماع الخبر بمضافه، فإنّما هو تقليد لدى شعراء الكيمياء، فصالح الدّين الكوراني (ت 1639- حلب) سمّى ديوانه بسلاسل النضار، مثلما سمّى بالطريقة نفسها ابن أرفع رأس ديوانه بشذور الذهب (ت 1197 - فاس) أي قطع الذهب الصغيرة. وهذا الأخير هو الذي أحال عليه صاحب قراضة العسجد في ديوانه مسمّياً إيّاه بـ"شخينا"، و"الصّادق المُرَكّي"، و"الشّيخ في الشذور". وتشير مفردة الحجر التي وردت في العنوان إلى دالتين: فإما أن تفيد مفهوم الشيء المفرد الذي به تنشأ صناعة الذهب، أو أن تفيد علم الكيمياء الذي يسمّى أيضاً بعلم الحجر.

2- التّحقيق من أعمال بن عربي الشعرية في الكيمياء :

لا نجد في كتب التّراث القديمة أيّة إشارة إلى ديوان قراضة العسجد إلا في كتاب إيضاح المكنون في الدّيل على كشف الظنون⁴ لإسماعيل باشا الباباني (ت 1339 هـ/ 1920 م)، الذي يصفه بكونه ديوان شعر. وهو المؤلّف الوحيد الذي نعثر فيه على هذه المعلومة. وقد صنّفه عثمان يحيى ضمن كتابه معتمداً هو الآخر على كشف الظنون مصدراً وحيداً تحت رقم 582⁵. ومن الغريب أن يغيب ديوان قراضة العسجد عن الجلدكي، أحد أهم مفسّري شعر الكيمياء، مثلما من الغريب أيضاً ألاّ يعود أحدٌ من دارسي بن عربي ومفسّريه إليه. أمّا الرسالة التي ألّفها عبد الرّحمن السّويدي⁶

³ وذلك في إطار اتّفاقيّة برعاها الاتّحاد الأوروبي. وتسمح هذه الاتّفاقيّة بتبادل الخبرات البيداغوجيّة والعلميّة بين أساتذة من جامعة التّاسع أفريل وبين زملائهم من جامعة باريس الثامنة.

⁴ إسماعيل باشا الباباني البغدادي، إيضاح المكنون في الدّيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط1، تركيا، وكالة المعارف الجليلية بإستانبول، 1951، المجلد 2، ص 222. توفي إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي قبل سقوط الدولة العثمانية بسنوات قليلة.

⁵ Osman Yahya, Histoire et classification de l'œuvre d'Ibn Arabi, Etude critique, I-II, Damas, 1964, Institut français de Damas, II, p424.

⁶ كتاب شرح الهمزية، عبد الرحمن السّويدي، المكتبة البريطانيّة، (Add. MS 23418, ff. 35r-48v.)، الورقة 42، 43. انظر: al-Suwaydī, *Sharḥ al-hamzīya*, British Library, Add. MS 23418, ff. 35r-48v. Cureton, William and Charles Rieu, *Catalogus codicum manuscriptorum orientalium qui in Museo Britannico asservantur*.

(1134-1200 هـ/1722-1786 م) شارحا علم الكيمياء عند بن عربي ومعتماً على القصيدة الهمزية التي نظمها بن عربي بمعزل عن قراضة العسجد، فإنها ورغم استشهاد عبد الرحمن السويدي فيها بكثير من أبيات شعرية ألفت من قبل شعراء في الكيمياء كابن أرفع رأس، إلا أنه لم يُورد بيتاً واحداً فيها من ديوان قراضة العسجد. وهو الأمر نفسه الذي ينطبق على تلامذة بن عربي⁷، فابن سودكين مثلاً (وهو -كما جاء في هدية العارفين- إسماعيل بن عبد الله النوري التونسي (أو التنيسي) الصوفي الحنفي شمس الدين أبو طاهر، توفي في حدود سنة 646 هـ (الموافقة لـ 1248 م) لا يورد في كتابه تحفة التدبير لأهل التبصير في الكيمياء - بيتاً لا من قراضة العسجد ولا من القصيدة الهمزية على الأقل، وذلك بالرغم من كونه قد استشهد بشعراء آخرين نظموا في الكيمياء كالشاعر ذو النون المصري، وكابن أميل، وكابن أرفع رأس أيضاً، متخذاً في الوقت نفسه من أبيات القصيدة البرباوية لخالد بن يزيد أمثلةً لإثراء نقاشه في موضوع الكيمياء.

ولقد أبدى ريتشارد تود⁸ وهو من المختصين الجامعيين في فكر بن عربي باللقاء الذي جمعنا بغوتنا بألمانيا نهاية 2018 تعجباً الشديداً من وجود هذا الديوان، كما أشار عبد الإله بن عرفة وهو محقق الديوان الكبير لابن عربي الذي نشره بدار الآداب ببيروت نهاية عام 2018 في مراسلات بيننا إلى عدم عثوره على نفس بن عربي الشعري فيه.

لذلك، فإن التحقق من هذا الديوان يحتاج إلى جهد كبير لاسيما من خلال التنقيب عن آثاره بين ثنايا المخطوطات غير المحققة. ولذلك، فإننا سنعتمد في إثبات الديوان له أو نفيه عنه -وذلك في عدم توفر عنصر المخطوطات- على وجوه التقارب والاختلاف بين شعره ونثره لاسيما في معرض الحديث عن الكيمياء لديه في هذا المقال. وسنفترض مبدئياً أن الديوان لابن عربي، وهو افتراض لا يقين فيه حتى يثبت لنا -مع مرور الوقت- ذلك.

2-1: الكيمياء بين المنازلة والكسب:

خلافاً للعمل المخبري الذي اشتهر به شعراء الكيمياء، فإن بن عربي يضع نفسه وهو يتطرق إلى الكيمياء في كتابه الفتوحات بمنأى عن هذه العوالم التجريبية. وسوف يقر بذلك عندما يقول: "أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب"⁹. وهو يقصد بطريق الكسب التجربة والمعاناة والتحليل. إن مفردة المنازلة مشتقة ومفردتي النزول والتنزيل من الجذر اللغوي نفسه، والمقصود بالنزول والتنزيل نزول الوحي من السماء على الأنبياء، أما المنازلة فهي من فعل نازل ينازل. ويفترض في ما تنطوي عليه هذه البنية الصرفية من معنى أن تكون دلالة المنازلة هو المشاركة في فعل النزول، فيكون بن عربي يطلب من جهته نزول ما يشبه الوحي أو الإلهام من السماء. وفي الواقع، فإن بن عربي لم يرغب عنه بسط المفردة بالشرح، بل وضع لها ما يقارب المعنى اللغوي الذي تأولناه قبل حين، وذلك في الباب الرابع والثمانين وثلاثمائة في معرفة المنازلات الخطابية في الفصل الخامس¹⁰.

Pars secunda, codices arabicos amplexens (London: The British Museum, 1846-71), pp. 635-637 (record 1371, item 2)

⁷ لا يمكن الجزم، لأنه لم يسعنا الحظ حتى الآن للاطلاع على جميع مخطوطات الكيمياء التي يمكن أن يكون قد ألف فيها تلامذة بن عربي.

⁸ هو أستاذ بقسم الدراسات اللاهوتية بجامعة برمينغهام ومختص في فلسفة ابن عربي.

⁹ محيي الدين ابن عربي، المختار من رسائل ابن عربي، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 2005، ص 11.

¹⁰ محيي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1999، ج6، ص 331.

والواقع أنَّ المنازلة لدى بن عربي تقابل مصطلحات عدَّة من بينها: المقام والحال والموقف الذي يشبه المصطلح الذي استخدمه النَّفَرِيُّ¹¹. فالكيمياء إذا ليست كسبا أو تجرِبَةً، إنَّما هي حالات يقفها المتصوِّف ويقومها. فما هي مواصفات هذه الكيمياء لديه وكيف يفسرها؟ إنَّ أشهر نصٍّ يمكن الرجوع إليه في هذا الموضوع هو النَّصُّ الذي تضمَّنه الباب السَّابع والسِّتون ومائة في معرفة كيمياء السَّعادة، وهو يندرج ضمن الجزء التَّاسع ومائة من كتاب الفتوحات المكيَّة¹².

يعرِّف بن عربي الكيمياء على أنَّها العلم الذي يختصُّ بالمقادير والأوزان، ويقسمها إلى علم طبيعي، وروحاني، وإلهي. ويقول في الفصل نفسه إنَّ العلم بها هو العلم بالإكسير، ويقسمه إلى قسمين: إمَّا إنشاء ذات ابتداء كالذهب المعدني وإمَّا إزالة علةٍ أو مرض كالذهب الصناعي. فأمَّا الذهب المعدني فلا يعدُّ الأصل الذي ترجع إليه المعادن كلُّها فحسب، وإنَّما أيضا هو الأصل الذي - بفضل الإكسير - يكون بمقدوره بلوغ درجة الكمال والتي تسمَّى بالذهبيَّة، فهو إنشاء ذو ابتداء، أمَّا إذا كان به مرضٌ أو علةٌ فدور العلم بالإكسير هو إزالته وعلاجه.

(2-3): الكيمياء بين الإنشاء وإزالة العلل:

سنكتفي في هذا المقال بمناقشة عنصر فكريٍّ واحد يعتبر نقطة التقاء بين قراضة العسجد وأعمال بن عربي النثرية، ويتلخَّصُّ هذا العنصر في موضوع الإنشاء وإزالة العلل.

ويتفرَّد بن عربي عن باقي الكيميائيين بهذه النظرية لاسيما نظرية إزالة العلل عن المعدن، بل ويعترف شخصيًّا أنَّ هذا الموضوع لم يدنُ إليه أحد، فيقول: "وما رأيت عليها أحدا يعرف ذلك ولا نَبَّه عليه ولا أشار، ولا تجده إلا في هذا الباب (وهو يقصد كيمياء السَّعادة) أو في كلامنا"، ويقصد مؤلَّفاته التي فيها تناول هذا الموضوع. ولا نستبعد ههنا أن يكون قراضة العسجد من تأليفه لما له من تقاطعات كبيرة مع نظرية إزالة العلل.

ولشرح النظريتين، يضرب بن عربي مثلا في المسيح عليه السَّلام، إذ يربطهما بما بدر عنه من المعجزات¹³، فـ"الإنشاء، هو خلقه الطير من الطين والنَّفخ، فَظَهَرَ (ت) عنه الصُّورة (الطينيَّة) باليدين (ظهر) الطيران بالنَّفخ الذي هو النَّفس (...). بينما إزالة العلل الطارئة هي في عيسى إبراء الأكمه والأبرص، وهي العلل التي طرأت عليهما في الرَّحْم (...)" كما يقول.

يكاد يكون شعره على هذا المنوال في ديوان قراضة العسجد، إذ يقول في [ق60-4،3،2]:

وَصَنَعَهُ دُونَ نَيْلِ حَاصِلِهَا حَلَّ رُمُوزٍ يِعَاقُهَا الْأَبْلَهُ
مُرَكَّبٌ فِي اقْتِضَا طَبِيعَتِهِ إِبْرَاءُ دَاءِ الْأَثَلِّ وَالْأَكْمَه
مِنْ حَجَرِيٍّ مَعْدِنٍ عَلَى جَبَلٍ مِنْ دُونِهِ الصَّحْصَحَانِ¹⁴ وَالْمَهْمَه

¹¹ محيي الدين ابن عربي، الفتوحات المكيَّة، ج4، ص 357.

¹² ويمكن الرجوع أيضا إلى مقدمة في علم الحجر، وهو كتاب منسوب إلى محي الدين بن عربي. جاء في خطبة هذا التأليف أنه ترجم عن اللغة الهندية، وهو يبحث في كيفية صنع "دهن الكبريت" الذي يصلح لعلاج عدد كبير من الأمراض النسخة ضمن مجموع (من الورقة 1 إلى 110)، بخط مغربي واضح، مجموع: 6266. انظر المخطوطة رقم 334: محمد العربي الخطابي، فهارس الخزائنة الحسينية بالقصر الملكي بالرباط، المجلد الخامس، تصنيف الرباط، الرباط، المغرب، 1986، ص 206. ويمكن الرجوع أيضا إلى رسالة المقنع في الكيمياء وصنعتة. وهي مخطوطة موجودة بمركز جمعة الماجد تحت رقم 233693.

¹³ علي عبد الفتاح محمد عبده، المعراج عند ابن عربي، ط1، بيروت، لبنان، كتاب ناشرون، 2017، ص509.

¹⁴ الصَّحْصَحَان: كله ما استوى من الأرض وجرد، والجمع الصَّحَاحِجُ. والصَّحْصَحُ أيضا: الأرضُ الجُرْدَاءُ المستوية ذاتُ حصَى صغار. وأرض صَحَاحِجٍ وصَّحْصَحَانٍ: ليس بها شيء ولا شجر ولا قرار للماء، قال: ولَمَّا تكونَ إلَّا إلى سَنَدٍ وادٍ أو جبل قريب من سَنَدٍ وادٍ. انظر اللسان.

يصف بن عربي في الدِّيوان نفسه من يزيل العلل والأمراض بالمداوي أو الطَّبِيب، ويطلق عليه مصطلح الإكسير. والإكسير لدى الكيميائيين هو ماء الحياة، الذي إذا ألقى على الشَّيْء الميَّت أعاده إلى الحياة، وهو نفسه من إذا حلَّ بالمعادن حوَّلها وبدَّلها. فإذا حلَّ في الرِّصاص (ويرمز إليه الكيميائيون بكيوان) حوَّله إلى ذهب (ذُكَاء أي الشمس¹⁵)، وفي المَرِيخ (رمز الحديد) وفي المشتري (رمز القزدير) إلى فضة بيضاء¹⁶. يقول:

31 هَذَا هُوَ الْإِكْسِيرُ قَدْ دَبَّرْتُهُ لِيَرُدَّ كَيُونًا لِشَكْلِ ذُكَاءِ

32 وَيَرُدُّ مَرِيخًا إِذَا أُجْرِيَتْهُ وَالْمُسْتَرِي لِلفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ

إن الإكسير - يقول بن عربي - هو المادَّة التي إذا ألقيت على المعادن حوَّلتها إلى ذهب أو فضة. فمن الأجساد من يرده الإكسير إلى حكمه، كأن يؤخذ وزن درهم (أي وزن 8 غرامات تقريبا) من ماء الإكسير فيلقه على ألف وزن (وهو وزن كيلوغرام) من أي جسد شئت من الأجساد، فإن كان قزديرا أو حديدا أعطاه صورة الفضة وإن كان نحاسا أو رصاصا أسود أو فضة أعطاه صورة الذهب، فهذه صنعة إزالة المرض لأنَّ الإكسير ههنا كالدَّواء يعيد بالمعدن إلى حالته الأصلية الأولى، إذ ينزع عن جوهره الأمراض حتى يكسوه بصورة الذهب. أمَّا إذا كان الجسد زيبقا، فإنَّه يعطيه قوته و[يجعله] يحكم عنه في الأجساد حكمه، فإذا ألقى من الإكسير وزن درهم على رطل من الزبيق فإنَّه سيردُّه إكسيرا كلَّه، فلا يُلقَى منه وزنٌ على وزن ألفٍ وزن من بقية الأجساد إلا وتحوَّل إلى إكسير فهذه صورة الإنشاء. يقول بن عربي وهو يرمز إلى الزبيق باسم عطارذ في القصيدة الهمزية:

33 وَتُلِيقَ مِنْهُ عَلَى رُطَيْلِ عُطَارِدِ مِنْقَالَ دِرْهَامٍ بَعِيرٍ وَفَاءِ

34 فَيَعُودَ إِكْسِيرًا عُطَارِدُ كُلُّهُ نَبَأًا آتَى مِنْ جُمَّلَةِ الْأَنْبَاءِ

والواقع أنَّ مداواة المعادن بالإكسير لم تكن إلا لأنَّ "... الأصل قد تطرأ عليه في طريقه عللٌ وأمراض من اختلاف الأزمنة وطبائع الأمكنة مثل حرارة الصَّيف وبرد الشَّتاء وبيوسة الخريف ورطوبة الرِّبيع ومن البقعة كحرارة المعدن وبرده". والاكسير كما وصفه بن عربي هو الطَّبِيب الذي يزيل عن الأصل ما كان عليه من الصور كصورة الحديد مثلا، فإذا رده إلى الطريق أخذ يحفظ عليه تقويم الصحة وإقامته فيها حتَّى يتعافى من مرضه. فإذا صار إلى النقاهاة لُطِّفَ غذاؤه وحُفِظَ من الأهوية وسُلكَ به على الصراط القويم إلى أن يكسو جوهره صورة الذهب، فإذا حصل له ذلك خرج عن حكم الطَّبِيب وعن علته فإنه بعد ذلك الكمال لا ينزل إلى درجة النقصان. ونجد في الهمزية ما يدلُّ على هذه المداواة بإزالة الأمراض والعلل حيث يدعو الشاعر إلى تنقية المعدن من الأمراض أوَّلًا، ثمَّ بعد ذلك إلى تلطيف الغذاء وتنشيف الهواء وتنقيته من الرُّطوبة، وذلك بقوله شارحا المرحلة الأولى:

7 وَاعْسِلُهُ بِالمَاءِ الْمُضَاعَفِ حَرُّهُ حَتَّى تُنْظَفَهُ مِنَ الْأَفْدَاءِ

8 فَإِذَا أَرَاكَ بَيَاضَهُ مُتَبَرِّئًا مِنْ عِلَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْأَدْوَاءِ

9 فَاسْحَقْهُ فِي صَلْدِ الْحِجَارَةِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَيْكَ لَيِّنَ الْأَجْزَاءِ

¹⁵ ذُكَاء بالضم هو اسمُ الشمس، قالت العرب قديما: هذه ذُكَاءُ طالعة، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنْ ذَكَتِ النَّارُ تَذُكُو، ويقال للضُّبْحِ ابْنُ ذُكَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ ضَوْئِهَا. انظر الجذر اللغوي "ذكا" في اللسان.

¹⁶ والواقع أنَّ الكواكب هي رموز للمعادن، فالقمر رمز الفضة، والزبيق رمز عطارذ، والنحاس رمز الزهرة، والذهب رمز الشمس والمَرِيخ رمز الحديد والقزدير رمز المشتري والرصاص رمز زحل أو كيوان.

ثُمَّ يَبِينُ لآحِقَا الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ بِقَوْلِهِ:

- 18 فَيْرَالُ عَنْهُ بِحِكْمَةٍ وَأَطَافَةٍ وَيُصَانُ مِنْ تَنْشِيفِ كُلِّ هَوَاءٍ
19 وَيُعَادُ ذَاكَ الْجِسْمُ مَعْمُورًا بِمَا أَسْقَيْتُهُ فِي أَوَّلِ الْأَشْيَاءِ
30 فَإِذَا ارْتَوَى مِنْ كُلِّ مَا أَعْطَاكَهُ، قَالَ الْحَكِيمُ بِمَجْلِسِ الْحُكَمَاءِ:
31 هَذَا هُوَ الْإِكْسِيرُ قَدْ دَبَّرْتُهُ لِيَرُدَّ كَيُونَانَا لِشَكْلِ دُكَاءِ

ويسمي بن عربي عملية إزالة العلل بـ"التدبير"، وهو من بين المصطلحات التي تفيد علم الكيمياء، مثل علم الصنعة، وعلم الحجر وعلم الميزان وصنعة الكيمياء وصنعة الأكسير والصنعة الإلهية والحجر المكتوم، ويقول بن عربي عن التدبير: "فإذا جاء العارف بالتدبير نظر في الأمر الأهون عليه، فإن كان الأهون عليه إزالة العلة من الجسد حتى يردّه إلى المجرى الطبيعي المعتدل الذي انحرف عنه فهو أولى. يُسمي بن عربي التدبير في ديوانه قراضة العسجد بالمسح والنسخ، والحلّ والعقد، ونزع الغش من الفلز، وهي كلها تفيد عملية إزالة العلل:

يقول في [ق 10-13]:

تُقَلِّبُهُ يَدُ تَدْبِيرِهَا فَمِنْ مَاسِخٍ بَعْدَهُ نَاسِخُ

ويقول في [ق 15-18]:

هِيَ سَائِلِي عَنْ جَوْهَرِ الْحَجَرِ الْفَرْدِ وَمَا فِيهِ بِالتَّدْبِيرِ فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ
تَوَارَتْ خَفَاءً ذَاتُهُ فِي صِفَاتِهِ وَتَمَّ بِهِ التَّدْبِيرُ فِي الزَّوْجِ وَالْفَرْدِ

ويقول في [ق 9، 10-45]:

وَإِذَا مَا تُدْبِرْتُ بِنْدَابِيرٍ مِنْ حَدَقٍ
نَزَعْتَ مِنْ فِلْزِنَا غِشَّ مَا ذَابَ وَأَنْطَرَقَ

الزبيق والكبريت:

ويضيف بن عربي أنّ العلل بالجملة كثيرة، فإذا غلبت على الأصل من المعدن علة من هذه العلل في أزمان رحلته ونقلته من طور إلى طورٍ وخروجه من حكم دور إلى حكم دور واستحكم فيه سلطان ذلك الموطن ظهرت فيه صورة (علة) نقلت جوهرته إلى حقيقتها فسُمي كبريتا أو زبيقا. والزبيق والكبريت لدى بن عربي هما الأبوان اللذان بالتحامهما وتناكحهما يخرج بينهما جوهر شريف كامل النشأة يسمى ذهباً. ثم يقول إنّ ذلك الأصل في الإلهيات نفس وفي الطبيعة بخار. ويتطابق هذا الشرح بما قاله بن عربي في قصيدته رقم 54 [ق 10، 11-54]:

إِنَّ فِي الْمَعْدَنِ الشَّرِيفِ الَّذِي فِي الْجَبَلِ الشَّاهِقِ الَّذِي قَدْ تَعَلَّى
زَيْبِقٌ عَاشِقٌ لِكِبْرِيَّتِهِ، فِي ضِمْنِهَا بَدْرٌ حُسْنُهُ يَنْجَلَى

وبما قاله أيضاً في القصيدة رقم [ق 1، 2، 3-61]:

كَثُرَتْ فِي فَكِّ الرُّمُوزِ الدَّعَاوِي مِنْ غُفُولٍ عَنِ الْحَقِيقَةِ لَأَوِي
كَيْفَ يَبْغُونَ فَكَّهَا بِغُفُولٍ لِمَوَازِينٍ وَضَعُهَا لَا نُسَاوِي

زَيْبِقُ {أ} تَعَشَّقُ الْكَبْرِيتُ مِنْهُ جَسَدًا لِلْكَمَالِ فِي الطَّبَعِ حَاوِي

وهذا التّعاشق والتّوالد والتّناكح الذي بين الزّيبق والكبريت لأجل معدن شريف ورد شرحه في الجزء الثالث من الفتوحات المكيّة¹⁷.

لكن تشابه الأفكار بين النّصّ الشعري والنّثري ليس مدعاةً للقول إنّ مؤلّفهما واحد. فقد يكون ديوان القراضة لأحد من تلامذة بن عربي، أو من الذين يدافعون عن رأيه، كما يمكن أن يكون مؤلّف القراضة قد استلهم من المصدر نفسه الذي استلهم منه بن عربي. فلا دليل انطلاقاً من هذه المقارنة يمكن أن يكون دامغا في إثبات نسبة الديوان إليه. لاسيما وأنّ مسألة تلازم الزّيبق بالكبريت نجدها عند شعراء قبله من قبيل بن أرفع رأس الذي يقول¹⁸:

فَهَذَا هُوَ الْاَكْسِيرُ وَالزَّيْبِقُ الَّذِي عَقَدْنَاهُ {بَعْدَ} الْحَلِّ فِي النَّارِ بِالتَّقْلِ

وَهَذَا هُوَ الْكَبْرِيتُ لَا الْمُحْرَقُ الَّذِي غَدَا مِنْهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي أَشْغَلِ الشُّغْلِ

ومن قبيل الطّغرائي¹⁹ الذي قال قبله:

وَالنَّاسُ بِالزَّيْبِقِ الْعُرُورِ وَبِالْ- كَبْرِيتِ وَالْاَوْسَاخِ فِي شُغْلِ

3- الكيمياء الرّوحية:

تعتبر القصيدة الهزمية أكثر القصائد انتساباً إلى عالم بن عربي الشعري. فهي خلاف قصائد قراضة العسجد، تحتوي على كثير من الأساليب المشابهة لما هو موجود في قصائد بن عربي الواردة في خطبة كتاب الفتوحات المكيّة مثلاً. فنجد صدر مطلع الهزمية الكيميائية:

يَا طَالِبَ الْأَسْرَارِ فِي الْأَسْمَاءِ إِنَّ الَّذِي تَبْغِيهِ عِنْدَ الْمَاءِ

مكرراً في عجز إحدى أبيات القصائد من الفتوحات كما هو الحال في نهاية البيت الثاني:

وَمَتَى وَقَعْتُ عَلَى مُفْتَشِّ حِكْمَةٍ مَسْثُورَةٍ فِي الْعَضَّةِ الْحَوْرَاءِ

مُنْحِيرٍ مُنْشَوِّفٍ قُلْنَا لَهُ يَا طَالِبَ الْأَسْرَارِ فِي الْإِسْرَاءِ

أَسْرِعْ فَفَدَّ ظَفِرَتِ يَدَاكَ بِجَامِعِ لِحَقَائِقِ الْأُمُوتِ وَالْأَحْيَاءِ²⁰

كما حلّ البيت الأخير من الهزمية محلّ البيت الثالث ما قبل الأخير من الهزمية الواردة في الفتوحات، حيث لم يعوّض بن عربي مفردة الشعراء التي تقع آخر البيت إلا بمفردة الفصحاء.

هذا قريضي منبئٌ بعجائبٍ ضاقت مسالكها على الفصحاء²¹

في كتاب شرح الهزمية المصنّف بالمكتبة البريطانية ضمن المخطوط رقم (Add. MS 23418, ff. 35r-) (48v.)، والذي يقع في 15 ورقة، يقسم عبد الرحمن السويدي (1134-1200/هـ 1722-1786 م) وهو مؤرّخ، من بيت قديم في العراق²² تفسيره للقصيدة إلى قسمين: ظاهر وباطن، فيشرح ظاهر

¹⁷ الفتوحات المكيّة، ج3، ص 408

¹⁸ انظر: القصيدة رقم 33، البيت رقم: [29-30]، ابن أرفع رأس الجياني، ص 249.

¹⁹ مؤيد الدين الطغراني، المقاطيع ديوان شعري تعليمي في الكيمياء، تحقيق رزوق فرج رزوق، مجلة المورد، ع4، 1985، ص187.

²⁰ الفتوحات المكيّة، ج1، ص22.

²¹ الفتوحات المكيّة، ج1، ص23.

²² خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، 2002، ج3، ص314.

النَّص بما بدا عليه من الكيمياء المعدنيَّة وباطنه بما يفضي إليه من تأويل الكيمياء الرُّوحية. وبينما يؤكِّد السُّويدي أنَّ هذه القصيدة هي لابن عربي، فإنَّه يشرح القصيدة بما يتوافق وفكر ابن عربي الصُّوفي. فالإنسان في كلِّه مثلاً هو إكسبيرُّ ناقصٌ يحتاج إلى تدبير وإزالة عِلل²³، فإذا تمَّ له ذلك، صار إنساناً ذهبياً كاملاً. يضرب السُّويدي مثلاً قصَّة من سمَّاه ببلال الذي منح لمعلِّمي الدِّين طريق الحقيقة الذهبيَّة وهو طريق الإكسبير عند الكيميائيِّين. ويظهر في هذه القصَّة الفرق بين الإنسان الكامل والإنسان الناقص، كما يظهر الفرق نفسه الذي بين الإكسبير والمعدن. يقول السُّويدي:

"ذكر اليافعي عن وليِّين جاعا ذات يوم، فقالا نخرج نعلِّم بعض النَّاس ما يحتاجه من أمور دينه ونأخذ منه أجره ندفع بها جوعنا، فخرجا وبدأ بناحية البرِّ فأبصرنا شيخاً من بعيدٍ فانتظراه، فإذا هو عبداً أسود وعلى رأسه حزمة شوك، فقالا تعال يا بلال نعلِّمك من ربِّك وأعطنا هذه الحزمة أجره، فألقى الحزمة عن رأسه، وقال: تعلِّماني من ربِّي أنثما من ربِّكما! فقالا له من أنت يرحمك الله، لم نعرفك، فقال: أنا من قوم إن قاموا قاموا بالله، وإن قعدوا قعدوا بالله، إذا قلنا لهذا الشوك كُنْ ذهباً كان ذهباً، فانقلب الشوك ذهباً لوقته، فقال للشوك لم أفصد الحقيقة، أرجع شوكتي، وأعطاهما ما تناثر من الشوك حيثُ ذهباً، وقال إذهباً فادفعا بهذا جوعكما فبهتتا منه ومَرَّ لوجَّهه.

فأنت يا أخي إكسبيرُّ ناقصٌ، وقد وهبك الله العقل، فدبِّر به نفسك، فمثلك الآن مثلُ إكسبيرِّ أخطأ حكمه العمل بعد أن لاح عليه آثار الصِّلاح واسترَّوح من روائح الفلاح، ووقف عن تدبيره وحرَّق ذقنه بكيره، ولو حصل له حكيمٌ أعرف منه خلَّصه من عيوبه، وأوصله إلى مطلوبه، فكما أن الإكسبير كان حجراً ثمَّ ماءً ثمَّ صار زبدهً ثمَّ ماءً إلى آخر ما يذكرونه أهل الصَّنعة كذلك أنت؛ كنت تراباً وأدم منجدل بين الماء والطِّين، ثم استحلَّت نباتاً فائقاً في خضرته، ثمَّ صيرتَ غذاءً لأُمَّك وأبيك، ثمَّ استحلَّت كيلوساً ثمَّ كيموساً مجرداً عن المادَّة، ثمَّ دماً قانئياً، ثمَّ مَنياً في مباحضة الاجتماع والجماع، مُسبِّباً من شوق أُمَّك وأبيك كزبده المخض للإكسبير الآتي ذكرها، ثم استقررت في قرار الرِّحم وعين الله ترعاك بروح أمداد لطفه، ولم يزل ينقلك في الأدوار والأكوار بتدبيره وتقديره ومشيئته علفه ثمَّ مضغه ثمَّ خلقاً مصوراً على شكل أبيك آدم، وهي الصُّورة التي كرَّمها الله تعالى على كلِّ خليفة بكمال العقل ومظهر العلم الذي هو سرُّ المعرفة بالأسماء كلها، وطلب منك أن تطلبه بما منحك من العقل والعلم، لينمَّ تدبيرك ويصلح إكسبيرك فإن أهملت الطلب ضعت أنت لا هو، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (...).

خاتمة :

إذا كان بمقدورنا إثبات قصيدة الهمزية للشيخ الأكبر، فإنَّه لا يمكن -انطلاقاً من هذا التحليل الموجز- الحكم على ديوان قراضة العسجد بحكم كونه مؤلفاً من قبل ابن عربي. فالمعطيات المتوفرة تشير بشكلٍ أوضح أنَّ الأفكار المقصورة على ابن عربي نثراً تتكرَّر شعراً في هذا الديوان، وهو ما يجعلنا نستنتج بشكلٍ نسبيٍّ أن ديوان قراضة العسجد يمكن نسبته من جهة أفكاره إلى ابن عربي في انتظار أن يطغى هذا الظنُّ ولا يثبت العكس فيه.